أسماء مصر

لناشد سيفين

لهذه البلاد أسماء عدة ومرجعها جميعاً الى ثلاث لغات وهي اللغة المصرية القديمة والسامية واليونانية . غير ان الآراء مختلفة على معانيها والسبب في وضعها . واني سأتناول في هذا المقال أشهرها محاولاً ان ألقي ضوءًا على الأصول التي اشتقت منها

أما الأسماء المصرية القديمة فكثيرة وكل منها يصف البلاد من احدى نواحيها وأشهرها ثلاثة.

الاول — « تاميري » ومعناه الارض التي يغمرها الفيضان . وعندنا لفظتان أرجح أنهما مشتقتان من هذا الاسم وهما « دميرة » وتطلق على فصل الفيضان . والا ترى «طمي» وهي تطلق على الرواسب التي تمكث في الارض من ماء الفيضان

والثاني — « تاوى » ومعناه الأرضان وبلغة العصر الحاضر الوجهان البحري والقبلي

والثالث — « خم » ويقول المرحوم العلامة أحمد باشا كمال في كتابه الحضارة القديمة ان الآراء مختلفة في معناه فمن قائل انهُ موقد او بجرة او تنور ومن قائل انهُ ربوة ذات نار مستعرة ومن قائل انهُ أسود

ولما كان الرمز المصطلح عليه في الكتابة الهيروغليفية لهذا اللفظ هو ذيل الثعلب وهو مميَّز بسواد لونه وحراشفه الناتئة الغليظة فانهُ يخلص من ذلك أن المراد بلفظة خم وصف الوادي المزروع بالسواد والتشقق تمييزاً له عن الصحارى التي على جانبيه وكانت تسمى « تاردشر » أي الارض الحمراء

أما الأسماء السامية فأقدمها الاسم العبري « ماحور » وهو مشتق من اسم مصرايم ابن حام . وسبب نشوء هذا الاسم يرجع في اعتقادي الى لبس وقع فيهِ اليهود بسبب طريقتهم الخاصة في نطق الحاء أدى بهم الى الخلط بين « خم » و « حام » أحد أولاد نوح . ذلك بأن الحاء في لسانهم وسط بين الحاء والكاف . فاذا نطقوا « خم » وقعت على الأسماع قريبة من « حام » فحسبوا ان اسمها هكذا ودعوها أرض حام ويرى مصداق هذا في المزمور الخامس بعد المائة . وقالوا لتفسير ذلك ان حام سكن هذه البلاد فدعيت باسمه . واذ وجدوا ان من أسمائها

أيضاً «تاوى» وتصويره الأرصاد ويرادفه بلغتهم مصرايم قالوا ان مصرايم من ولد حام قد استقر في هذه البلاد وان أهلها من ذريته فكان لذلك تسميتهم باسمه. ومن هذا الاسم اشتقوا «مصور» ومنه اشتقت الأسماء الآشورية والبابلية مصير ومصري وموصور والاسم العربي مصر

أما الاسم اليوناني ايجبت فقد تضاربت الأقوال في اشتقاقه. ومن رأي العلامة بروكش انه مشتق من «حت — كا — بتاح» اسم منف عاصمة البلاد في زمن الدولة القديمة. ومعناه مكان نفس الإله بتاح. ويفسر ذلك على ما جاء في كتاب الحضارة القديمة الذي سلفت الاشارة اليه بأن الأقوام المتوحشين من ملاحي البحر المتوسط كانوا يفدون الى مصر ويسمعون من أهلها اسم عاصمتهم لكونها كانت أكبر مدن مصر وأهمها وأغناها وتعود محرفاً الى ايجبت ومن بلادهم انتقل الى سائر بلاد اوربا. ولست أرى هذا الرأي لسببين: —

الاول — انه لم تجر العادة ان يطلق اسم مدينة بالغة ما بلغت من العظمة على قطر بأسره كما انه ليس يصح في الاذهان ان يجهل هؤلاء الملاحون اسم البلاد التي كانت في ذلك العهد أغنى بقاع العالم والمنفردة من دونها بالحضارة ثم يهبطون اليها على جهلهم بها، واعتاطهم اغما - ركبون الاخطار ويتجشمون الأسفار ابتغاء المنفعة وجرياً وراء الغنائم. وينجولون من ثم في انحاء الدلتا ويرون مدائنها العظيمة ومعالمها الفخمة ومظاهر الثراء البالغ فلا تأخذهم من ذلك دهشة تحفزهم على السؤال عن اسم البلاد. ويلبثون على ذلك حتى ينتهي بهم المطاف في العاصمة وهناك لا يعرفون اسم البلاد ولكن يسمعون من اهلها اسم مدينتهم فيحسبونه اسم البلاد وينقلونه محرفاً الى بلادهم

والسبب الثاني لمعارضتي هذا الرأي هو ما تقرره معاجم اللغة من ان لفظة كما يونانية وان اليونان الاقدمين اشتقوها من «حم» اعترافاً لهذه البلاد بانها واضعة الاساس لهذا العلم النفيس والحقيقة التي تبرز من ذلك هي ان هذه البلاد كانت معروفة في اليونان في عصر ازدهار العلوم وتبويبها باسمها القومي لا باسم ايجبت

والذي نراه ان هذا الاسم لم يظهر في الوجود الا في زمن تمتع فيه المهاجرون من اليونان وجزر بحر ايجه بنفوذ عظيم في البلاد. وبالرجوع الى التاريخ نجد انه قبل قيام الاسرة السادسة والعشرين كانت البلاد ممزقة الأوصال لوقوع الدلتا تحت نير الاشوريين ومصر العليا تحت سلطان الاثيوبيين. وكانت الروح القومية من جراء ذلك واهنة فلما اراد بسامتيك توحيد البلاد ولمّ شعثها وربط أجزائها تحت حكمه لم يرَ مناصاً من الاستعانة على تنفيذ مشروعه بجنود يستأجرهم من هؤلاء المهاجرين. ويروي هيرودوتوس خبر ذلك لسان فضل قومه وحسن بلائهم وهو مؤرخ يوناني زار هذه البلاد بعد بسامتيك بنيف ومائتي سنة اذ كانت قد أفل نجمها وفقدت استقلالها ودخلت في نطاق الامبراطورية الفارسية فيقول:

كانت الدلتا منقسمة الى اثنتي عشرة منطقة يحكم كلاً منها ملك مستقل بشئونها. وكان هناك وحي ينبيء بأن احدهم سوف يتسلط على الآخرين ويبسط سلطانه على البلاد بأسرها وهو الذي يتاح له يوماً ان يسكب تقدمته من الخمر للاله بتاح من آنية نحاسية . فتعاهد الملوك فيما بينهم على ان لا يذهبوا الى المعبد الا مجتمعين خشية ان يذهب احدهم منفرداً فيصنع ما أشار به الوحي في غفلة من الآخرين . ولبثوا على ذلك ردحاً من الزمن يسود بينهم الصفاء ويرفرف على ربوعهم السلام حتى كانت احدى السنين وحل موعد زيارة المعبد لتقديم التقدمات المعتادة وكان المتبع في هذه المناسبة ان يعد الكاهن اثنتي عشرة كأساً ذهبية ليضع الملوك تقدماتهم فيها غير انهُ في تلك السنة أعدَّ عن سهو احدى عشرة كأساً فقط وأخذ يوزعها عليهم ولما جاء دور بسامتيك لم يصب كأساً . عند ذلك أسرع فنزع خوذته النحاسية وملأها خمراً وسكب منها أمام الاله . واذ رأى الملوك الآخرون ذلك هتفوا وأوجسوا خيفة من بسامتيك لعلمهم بما ينطوي عليه عمله من تهديد لهم فيما لو صدق الوحي . فأغروا به واتفقوا على قتله . لكنهم عدلوا عن ذلك وتألبوا عليه وتحالفوا ضده وحاربوه فأخرجوه من دياره ذليلاً مقهوراً وما زالوا يطاردونه حتى أدخلوه الادغال الشمالية المحاذية للبحر

مكث بسامتيك هناك زمناً وهو كسير النفس حزين حتى لقد غمره اليأس من تبدل الاحوال وظن ان لا مخرج له من هذا المصير السيء . فأرسل الى معبد بوتو يستفتي الوحي في أمره . فجاءه النبأ اليقين بأن يوم الانتقام آت لا ريب فيه وموعده حين يجيء من ناحية البحر قوم من النحاس

كانت كلمات الوحي غريبة في بابها فلم يطمئن بسامتيك أول الأمر اليها كثيراً . وساورته الشكوك في امكان تحقيق الوعود التي جاءت بها . غير انه لم يمض الا زمن وجيز حتى هبط الى الشاطيء قرصان من اليونان والكاريين وكانوا جميعاً يلبسون دروعاً من النحاس تغطيهم من الرأس الى القدم . واذ رآهم بسامتيك نزلت السكينة في قلبه وأيقن ان الوحي قد صدقه الوعد وان ساعة الانتقام قد دنت . عندئذٍ تقدم اليهم وعرض عليهم ان يساعدوه على قتال الملوك الآخرين واخضاع البلاد بأسرها لسلطانه لقاء أجر كبير . فقبلوا ذلك وألف منهم ومن المصريين الموالين له جيشاً جرده لقتال ملوك الشمال الذين غدروا به . ولما فرغ منهم انقض على الجنوب يحاربه فاستسلم له . وهكذا أصبحت البلاد بأسرها تحت حكم بسامتيك . وكان شجاعاً حازماً ومدبراً حكيماً ، واستطال زمن حكمه فاستطاع ان يضع الاسس المتينة لقيام أسرة من خلفائه هي الاسرة السادسة والعشرون . فهذه الرواية وان تكن بالاساطير أشبه ، فان التاريخ يؤيد ما جاء فيها عن المهاجرين الايجيين واليونان انهم كانوا عدة بسامتيك في الانتصار على خصومه والدعامة القوية التي أقام عليها مجد أسرته ويزيد عليه انه أجزل لهم

انعطاء حراً وفاقاً على ما أسدوا له من العون لنبوغ مآربه فعينهم في حرسه الخاص وأقطعهم بعض الاراضي في الدلتا ومنحهم كثيراً من الامتيازات

هذا ما جاء بسامتيك حدوه ونهجوا نهجه. لكن كان أكثرهم سخاء مع هؤلاء المهاجرين وأشدهم عطفاً عليهم امر الذي يسميه اليونان أمازيس ويشيدون بذكره كثيراً في كتبهم ويروون كثيراً من القصص عن كياسته وحكمته فلقد بلغ من حبه لهؤلاء القوم أنهُ تزوج يونانية تدعى لارنكا وضاعف لهم المنح وزاد لهم فيما يتمتعون به من امتيازات حتى أصبحوا وهم خير مقاماً في البلاد من المصريين أنفسهم. وأفسح لهم المجال للانخراط في سلك الجيش فأصبح الجيش بهذه السياسة مؤلفاً من فرق مصرية وفرق يونانية وعلى رأس بعضها قواد يونانيون. وكان من جراء ذلك أن عظمت هجرتهم الى البلاد وكثر عديدهم فوهبهم أمازيس مساحات واسعة في الدلتا شيدوا عليها مدناً لهم خاصة وأقاموا فيها المعابد لآلهتهم من أشهرها نوكراتس وهي ميناء كانت تقع على فرع رشيد. فداخلهم الغرور بما وطىء لهم من مهاد العز والجاه في تلك البلاد حتى كانوا يقولون على ما جاء في كتاب « على هامش التاريخ المصري القديم » للمرحوم عبد القادر حمزة باشا « بأن هذه المنطقة امتداد لليونان »

واذا تقرر هذا فانهُ يبدو من المحتمل جداً ان أولئك المستعمرين قد التقوا مع غرورهم فأطلقوا على هذه المنطقة اسم ايجبتوس اشتقوه من ايجبا وهو اسم البحر الذي يفصلهم عن الجزائر التي نزحوا منها

وهناك اسطورة عند اليونان تزعم أن ايجبتوس كان من ولد زفس كبير آلهتهم وهو الذي أسكنهُ هذه البلاد فأطلق اسمه عليها وخلاصتها انه كانت للاله زوجة تدعى هيرا ثم أخذ عليها امرأة أخرى تدعى ايو وكانت كاهنة لهيرا في معبدها فاستشاطت لذلك غضباً وتملكتها الغيرة وانتقمت منها بأن مسخها بقرة وجعلتها تضرب في الآفاق على غير هدى حتى هبطت هذه البلاد. وعلم زفس بأمرها فحن بها ورددها الى هيئتها الاولى وأولدها ابناً كان من سلالته ايجبتوس

هذه الاسطورة لا تخالف ما ذهبت اليه اذ انها لا تعدو ان تكون تعليلاً لوجود جالية يونانية ذات نفوذ في البلاد وهي تلقي في الروع ان هؤلاء اليونان لم يكونوا أجانب في البلاد لأن الاله هو الذي أوجدهم فيها وأعطاهم اياها وهو زعم يتمشى مع نظريتهم القائلة بأن هذه البلاد امتداد لبلادهم التي على الجانب الآخر من البحر

وبعد بسامتيك بنحو أربعة قرون أصبح اليونان سادة العالم وانتهت اليهم أزمة الحكم في هذه البلاد فغلب الاسم ايجبتوس على البلاد كلها ثم اختصر الى ايجبت. ولما فتح العرب البلاد وجدوها تدعى بهذا الاسم فحرفوه الى قبط اسبوط